التوكّل على الله وكيمياء جسم الإنسان

ويحتوي على المبحث التالي:

- عشت في جنة الله.

obeikandi.com

obeikandl.com

الإيحاء كما يقول الدكتور أحمد عزت راجح في كتاب (الأمراض النفسية والعقلية): «هو العملية التي يؤثر بها شخص في آخر تأثيراً مباشراً؛ فيجعله يتقبّل رأياً أو فكرة أو اعتقاداً، وذلك دون مناقشة أو أمر أو قسر. والقابلية للإيحاء هي تَقَبُّل الآراء والأفكار والاعتقادات دون نقد أو مناقشة أو تمحيص، خاصة إذا كانت صادرة من شخص ذي نفوذ، وهي حالة من الاعتماد النفسي على شخص آخر، وجوهر العلاج بالإيحاء هو غرس فكرة أو اعتقاد أو استثارة شعور في نفس المريض الموحى إليه». ويستخدم العلاج بالإيحاء في حال يقظة المريض، والإيحاء في هذه الحالة يكون مصدره شخصٌ آخر، أو يكون (إيحاءً ذاتياً) حين يكون مصدره الشخص نفسه.

فالإيحاء هو ذلك التأثير النفسي الذي تنقل به تخييلات من أعمال الموحي كالطبيب أو أي شخص آخر يثق به الموحى إليه. وعلى سبيل المثال لنفرض أنّ طفلاً ما يخشى من الظلام فيوحي إليه الطبيب بكلماته المؤثرة في وعي الطفل لإزالة حالة التخيّلات السلبية أو المعاكسة كالخوف من الظلام ليزيله عنه، ويقول الدكتور أمين رويحة بصدد هذه الحالة لدى الأطفال:

«لمعالجة طفل مصاب (بمركب الخوف من الظلمة) بالإيحاء المقنّع نعطيه (دواءً منوّماً) ونقول له ـ كلمات الإيحاء ـ إنّ هذا القرص الذي بلعته الآن، سيزيل (خوفك من المكوث في الظلمة)؛ وهذا ما سيحدث بكل تأكيد إذا شعرت بعد تناول القرص بتعب في جسمك، وبعد قليل يبدأ مفعول القرص المنوم، ويبدأ الطفل بالشعور بثقل وتعب في جسمه.

وعلى أثر ذلك يبدأ ترابط أفكار عند الطفل كالآتي: تقول أفكار الطفل

لنفسها قد ظهر التعب في الجسم وتحقق ما قاله الطبيب مسبقاً، وكذلك قال الطبيب: إنّ القرص سيزيل خوفي من الظلمة، فما دام الشق الأول من أقواله قد تحقق فعلاً، فلا بدّ للشق الثاني منها أن يتحقق أيضاً. فالدواء هنا (أطلق عليه إيحائية) أو تمويهية.

ويدعى الدواء أيضاً بحبوب الغُفل (Placebo)، وتحتوي حبوب الغفل أو كبسولاتها على مادة عديمة التأثير طبياً. وقد اعتبرت هذه الحبوب من الأسرار الطبية الغامضة. فهي لا تحتوي على أي علاج طبي يمكن أن يشفي. ومع ذلك، فعندما تعطى هذه الحبوب إلى مجموعة الضبط (Control group) لتجربة فاعلية دواء جديد، فإن المجموعة التي تأخذ هذه الحبوب الزائفة، تظهر دائماً تحسناً وشفاءً، وأحياناً يعادل المجموعة التي تأخذ المستحضر الطبي.

يقول الدكتور أحمد توفيق[4]:

«من أسهل الأمور علينا الآن أن نصدق المعالجة القديمة، التي كانت عدتها الخروع والمنقوعات والتعاويذ، لم يكن لها من القوة الشفائية، ما كان ينسب إليها. وننسى أن الطب في الأزمنة القديمة لم يكن يمتلك في جعبته العقاقير الشافية الموجودة الآن. لذلك فإن من الظلم تخطئة المعالجين القدامى، لأنهم كانوا يقدمون لمرضاهم مواد وأشياء كانوا هم يرونها، ويراها المرضى أنفسهم شافية. وننسى فوق هذا أن كثيراً من الأدوية في يومنا هذا، ووسائل العلاج العصرية التي تقوم في المستشفيات والعيادات التي تعتمد أرقى الوسائل التكنولوجية، لا تعدو كونها مزيجاً من التصديق والسحر والشعائر الطبية.

(4) د. أحمد توفيق: الشفاء الذاتي بقوة عقلك الباطن، 2005، ص: 130.

إن المعالجة الطبية حالياً هي أميل إلى العلم، وأن الأدوية العصرية لا تطرح في الأسواق إلا بعد مرورها بسلسلة من التجارب الشاقة للتأكد من مفعولها. ومع ذلك فإن بعض الخبراء الطبيين يقدرون بأن نسبة قليلة من الأدوية التي تقدم روتينياً، قد تتدنى إلى 20٪ فقط، هي أدوية مرت فعلاً بدراسات واختبارات معمّقة. وما يزال الأطباء والمرضى على السواء، يعزون قوة شفائية لبعض الحبوب والمعالجات النفسية والتدابير الجراحية الخالية من أي مفعول شفائي في الواقع.

وقد يكون مفعول الدواء الغُفل هائلاً و خارقاً أحياناً. على سبيل المثال، ما حدث في أواخر الخمسينات من القرن الماضي، حيث أن آلافاً من المرضى بالذبحة ـ ألم صدري ناشئ عن عدم وصول كمية كافية من الدم إلى القلب ـ أخضعوا لعمليات جراحية القصد منها على ما كان يعتقد زيادة حجم الدم الواصل إلى عضلة القلب. وقد كانت المعالجة ذات تأثير ملفت للنظر، إذ أن نسبة عالية من المرضى وصلت إلى 90٪ قد وجدوا راحة من مرضهم بعدما خَفَّت أعراضهم، غير أن بعض جراحي القلب كانوا ينظرون بعين الشك إلى هذه العملية (ربط الشدي الشرياني الباطني Internal mammary artery ligation) وقرروا إلقاء نظرة أدق.

وقد أجروا هذه العملية بتمامها على عدد من المرضى، وأجروا عملية (مزوّرة) على عدد آخر منهم، أي أنهم أحدثوا شقاً صدرياً على هؤلاء ولكنهم لم يمضوا إلى أبعد من ذلك. فماذا كانت نتيجة هذه التجربة؟ 76 من المرضى الذين أجروا العملية بتمامها تحسنت أحوالهم. أما الذين أُجريت لهم العملية المزوّرة فقد كانت نسبة التحسن لديهم 100٪.

openkanali.com

بالطبع ليست كل المعالجات الغُفل بمثل هذا القدر من المفعول. وهناك أنواع من الأعراض أكثر من أمراض أخرى تأثيراً بالمعالجات الغُفل، ولكن قدر بأنه بالنسبة لطائفة واسعة من الأمراض (الألم، ارتفاع ضغط الدم، تصلب المفصل الرثوي، الربو، السعال) و أنواع شتى سواها، فإن بين 30 ـ 40٪ من المرضى بها، يلقون راحة كبيرة عن طريقة المعالجات الغفل وحدها، و في بعض الحالات المرضية قد ترتفع نسبة التحسن إلى 60 ـ 70٪ عن طريق المعالجات الغُفل.

وأكدت بعض الأبحاث والدراسات أن الأدوية الغفل أو الدواء الإيحائي أو التأثير الإيحائي يمكن أن يكون لها أيضاً تأثير على اضطرابات نفسانية معينة. على أية حال إذا أردت أن تتعلم المزيد عن هذه الأدوية الغُفل، فعليك بقراءة كتاب الدكتور أحمد توفيق في المصدر السالف الذكر.

هذا كما أنّ لظهور تأثير الإيحاء شروطاً منها:

1 ـ **شخصية الطبيب (الموحي)**: لا يخفى علينا بـأنّ الكلمات التي يلقيها الطبيب لها الفعل الأقوى، بيد أنّه في الوقت نفسه فإنّ لشخصية الطبيب وصفاته وحركاته وملبسه دوراً في ضمان مفعولية الإيحاء.

2 ـ **شخصية المريض (الموحى إليه)**: يجب أن يكون الإيحاء متناسباً مع شخصية المريض، ولا شك أنّ إيحاء الطبيب يجب أن يختلف من مريض لآخر، ولبيان ذلك مثلاً يختلف الإيحاء إلى رجل مثقف عن رجل غير مثقف، فالإيحاء يجب أن لا يكون منهجياً لتطبيقه بشكل واحد أو بصورة واحدة على الأفراد المختلفين، بل يجب أن يتنوع الإيحاء

بتنوع الأشخاص، فتكون الثقافة العالية في كثير من الحالات، إن لم يكن في جميعها، عقبة للاستجابة إلى إيحاء الطبيب.

هذا واعلم أنّ الطبيب ربما يساعدك للشفاء في مرضك وفقاً لما تتطلبه في حالة من الحالات، أمّا الذي يتولى عملية الشفاء العجيبة الغامضة، فهو الطبيب الذاتي الموجود في كيان كل إنسان، ويجب أن لا يخفى علينا بأنّ الإنسان مكون من عنصرين اثنين هما المادة وأقصد بها الجسد، والروح. علماً بأنّ الشفاء الحق والتام هو من عند الله تعالى.

وغالباً ما يذهب الطبيب لعلاج العنصر الأول متناسياً العنصر الثاني إن لم يكن الأول هو الأهم من الثاني وهو الروح «النفس». فالدواء الذي يوصف من قبل الطبيب ليس إلا مادة، ولكنّ هذه الوصفة لا تعالج إلا العنصر الأول وهو المادة، أي أنّ الطبيب قد أهمل في هذه الحالة، المكون الثاني، وهو الناحية الإيمانية والقلبية والنفسية للمريض، فإذا قارنت ما يصفه الطبيب لمريضين اثنين دواءً موحياً لأحدهما بكلمات معسولة بالشفاء دون الآخر، فالنتيجة لاريب فيها سيكون شفاء الموحى إليه بالكلمات المعسولة الشافية أفضل من الآخر، وربما بكثير.. ففي هذه الحالة قد عالج الطبيب العنصرين اللذين يتكون منهما الإنسان. هذا وقد أثبت علماء النفس من الأطباء بأنّ إيحاء الطبيب إلى المريض بالشفاء سيعجّل بالشفاء، وهناك أمثلة كثيرة في هذا المجال.. وقد ذكرت مثالاً وهو الطفل الذي كان يخاف من الظلام. ولسنا متناسين ماكان يصفه الأطباء للمرضى من أدوية وحبوب تمثيلية ونفسية وتخيّلية، ولكنّها كثيراً ما كانت تشفي المريض، فأطباء اليوم يعلمون ما لهذه الأدوية من تأثيرات في حالة المريض؛ كتعديل سرعة نبضات قلبه، أو شفاء

آلام المعدة أو القرحة أو غيرها من الأمراض، ولكنّ العلماء يحاولون اليوم أن يعرفوا التأثير الحقيقي لهذه الأدوية على كيمياء الجسم.

إنّ بعض العلماء بدأوا يعترفون بحدوث معجزات طبية باستخدام هذه الأدويه، كما أطلقوا عليها أيضاً اسم تأثير نظائر الأدوية؛ فالأمل والإيمان والثقة، من العناصر الرئيسية في مثل هذه الأدوية، وهي تستطيع في أحيان كثيرة إحداث تغيير في كيمياء الجسم، أو تُعَدِّلَ سير أعنف الأمراض.. هذا وللإيحاء دور لا يستهان به في تحسين الحالة الصحية أو الإساءة إليها؛ كما أنّ الوسيلة لاستخدام الأدوية الإيحائية قد تكون بسيطة جداً كحقنةٍ مليئة بماء مالح، أو كحبة مغلّفة بشيء من السكر (وإن لم يكونا دوائين حقيقيين) أو كالرجاء فقط، ثم إنّ الأدوية التمويهية، قد تقضي على الاضطرابات العصبية أحياناً، فعلى سبيل المثال فقد عمد أحد الأطباء إلى إعطاء دواء لمعالجة حالة التقيؤ لامرأة حامل تشكو من الغثيان والتقيؤ قائلاً لها: أن هذا الدواء هو علاج لحالتها هذه، فسرعان ما أحست المرأة بالارتياح. وكذلك أعطيت مريضة مصابة بداء الفصام حبة مغلفة بالسكر إيهاماً لها بأنها دواء جديد رائع وحاسم، فسرعان ما توقف قلق المرأة واضطرابها (إذن فالوهم يكفي لوقف المرض وأعراضه أو تخفيفهما في كثير من الأحيان) ثم استقرت في النهاية على حبتين يوميًا فقط للمحافظة على استقرار حالتها.

فهناك أمثلة أخرى كتبت في مجلة الجيل (1982) الصفحة 22 بعنوان: القوة السحرية للدواء الوهمي، بقلم لورنس شيري، حيث يعلمك ما للإيحاء من تأثير في الإنسان: فقد عمد طبيبان من جامعة كاليفورنيا إلى تجربة للتعرف على حقيقة عمل الدواء التمويهي، فأبلغ الطبيبان متطوعين لاقتلاع أضراس

(سن) العقل وأُعطوا ممكنات لتهدئة الألم من غير تحديد نوع الممكنات التي كانت (مورفينا) للبعض، ومحلولاً ملحياً للبعض الآخر، وخفف الألم فعلاً عن ثلث الذين حقنوا بالمحلول الملحي، ثم حقن أفراد هذا الثلث بدواء النالوكسون Naloxone المضاد لتأثير الأفيون، وسرعان ما عاد الألم، لأن دواء النالوكسون أوقف إفراز مواد تسمى بالأندورفينات (Endorphins) وهي في الحقيقة ناقلات عصبية ببيتيدية (Neurotransmitter peptides) والببتيد عبارة عن مجموعة من الحوامض الأمينية وهي موجودة في أنسجة المخ، (الحامض الأميني عبارة عن الوحدة الأساسية لتركيب البروتينات) كما تدعى الأندورفينات أيضاً بالأفيونات الببيتيدية، لأن طريقة تأثيرها تشابه طريقة المورفين والأفيونات الأخرى، وإنها تتواجد عادة بكميات قليلة جداً في كل من الفقاريات (كالإنسان والحيوانات الفقرية الأخرى) واللافقريات، وسوف أشرح لك عزيزي القارئ تركيب هذه المركبات بصورة واضحة. والآن لأعود بك مرة أخرى إلى تجربة الطبيبين بعد عرض بسيط للأفيونات الببتيدية وأقول: أن هذه المواد الأفيونية في المخ أفرزت (نتيجة للإيحاء) وقامت بتقليل الألم وإيقافه وذلك نتيجة لدور هذه المواد في الجهاز العصبي وتقليل الإحساس بالألم وإزالته.

فقال الطبيبيان: إن وقف الشعور بالألم عند الذين حُقنوا بالمحلول الملحي يعود إلى تزايد إفراز الأندورفينات بعد هذا الحقن. ومن هنا يمكن أن نقول عزيزي القارئ إن لهذا العلاج التمويهي علاقة فعلية بكيمياء الدماغ.

إن هذا الكشف يثير سؤالاً وهو: لماذا استجاب ثلث الذين حقنوا بالمحلول لهذا الدواء التمويهي فقط؟ ولماذا لم يستجب الجميع لمثل هذا العلاج التمويهي؟

قد تكون لنوعية الشخص المحدد علاقة بالاستجابة للدواء، أو تكون لثقته بالآخرين واعتماده عليهم لمساعدته صلة بذلك.

ومن رأي هؤلاء الأطباء النفسانيين أن الشخص القابل للتأثر بالآخرين هو الذي تفعل فيه العقاقير التمويهية فعلها الشافي، إذن إن هذا يعني أن تقبل الفرد للتأثر بالآخرين (أي تقبل الإيحاء) هو مفتاح لتأثير العقل على الجسم تأثيراً إيجابياً مفيداً من هذه الناحية، أو تأثيراً سلبياً من ناحية أخرى، كما في حالة الموت المفاجئ لشخص ما في حالة صحية جيدة (بعيدة عن أي مرض) بعد أن قام بعمل ما يخرق فيه محرماً أو شيئاً يتذكر به لتقليد اجتماعي معين، يرى بعض الباحثين، أن مثل هذا الموت المفاجئ الذي يحتجب لأجزاء في الدماغ تتصل بالفكر والعاطفة، وهاكم إخواني القراء أنقل لكم قصة رجل من قبيلة آلماووري في زيلاند الجديدة أصيب بارتعاشات عنيفة، ثم توفي بعد ساعات قليلة، حين علم أنه أكل دجاجة برية وهو وُلِدَ يجهل أنها محرمة على غير البالغين. وكان من شأن هذا الاستعداد الملحوظ للاستجابة بالمعتقدات والإيحاءات بمثل هذه الصورة المأساوية أن اقتنع العديد من الباحثين بأننا قابلون بدون شك للتأثير بالأدوية الوهمية وحتى أنهم اعتبروا أن ذلك جزء من تكويننا الجيني كمخلوقات بشرية يظهر في الوقت الملائم. فالآن اسأل نفسك وقل: هل أصيب ذلك الشخص بطلقة أو سكينة؟ فالجواب: كلا، ولكن الاعتقاد بمبدإ أودى بحياته.

والجديد في موضوعي الآن هو إيجاد علاقة بين ما أصبو إليه وبين ما ذكر حول الإيحاء من قبل علماء النفس وهي كالآتي:

إذا دققنا النظر في تعريف العلماء للإيحاء: (بأنه تقبل الآراء والأفكار والاعتقادات دون نقد أو مناقشة أو تمحيص، خاصة إذا كانت صادرة من شخص ذي نفوذ).

والآن أليس هذا التعريف سيقارب ما أعرّفه لك؟

حيث أقول:

الإيمان: هو أن تتقبّل ما قاله لك الحق من آيات ، وتتوكّل عليه، وتؤمن أنّه ييسّر لك أمورك وشفاءك وإنقاذك من مصائب الدنيا، لترضى به رباً دون جدل أو شك ؛ فقبولك لهذه الأمور ليس من شخص دنيوي ذي نفوذ (كما عرّفه علماء النفس) بل إنها مقدّرة من خالقك الذي بيده أنفس المتنفذين في الدنيا، وترضى بالله في سرائك وضرائك. وهل تعارضني في هذا التعريف؟ عندما أقول لك أنّ هذا الإيمان مع التسبيح والذكر والدعاء أفضل من الإيحاء الذي نحن بصدده وفق أقوى تعريف للعلماء له، لأنّ تقبّلك للأفكار ، والرضا بقضاء الله ، وليس قرار أو وحي شخص دنيوي ذي نفوذ. فإذا كان الوحي طبيباً أو شخصاً ذا نفوذ يثق به الموحى إليه، له ذلك التأثير الكيمياوي الذي اكتشفه العلماء في أواسط المبيعات، فما بالك بتأثير إله تدعوه وتؤمن به وتحبه أشد الحب.. وقد قال الله في كتابه العظيم:﴿...ٱدْعُونِىٓ أَسْتَجِبْ لَكُمْ﴾ [غافر: 60]. فما العمل إذا كنت تلهم نفسك بأنّ لك خالقاً قد وعدك بأن يستجيب دعاءك، وهو خالق الأطباء وخالق العلم ؟ وهو الشافي للقلب الذي هو منبع إرادتك، وهو ما يعرفه العالم الفاضل الدكتور عبد الله مصطفى الهرشمي في كتابه:

obeikandi.com

(معالم الطريق في عمل الروح الإسلامي) الصفحة (277) المنشور سنة 1993 بأنّه: (قوة روحانية لطيفة ذاتُ مِرّةٍ لها الإرادة ولها التأثير البليغ في القوتين الأخريين (الفكر والنفس)، وأيضاً تختص بمعقولات لا تصلها القوتان الأخريان. ومظهر ارتباطهما بجسد الإنسان هو العضو الصنوبري الجسماني الموجود في تجويف الصدر والمسمى باسم «القلب» عينه).

انظر: فإنّ هذا التعريف يطابق تماماً ما قاله بعض الأطباء حول سبب الموت المفاجئ بأنّه اضطراب كهربائي في خفقان القلب الذي يستجيب لأجزاء في الدماغ تتصل بالفكر والعاطفة. ففَوِّضْ أمرك إلى الله، واجعل قلبك له ذاكراً، فهو خالقه ويعلم كيف يشفيه، وهو بذلك يقوي لديك الرجاء في الشفاء؛ إذ أنّ لهذا الذكر والتوكل على الله تأثيراً بيّناً على الدماغ ـ كيميائه ـ حيث يحثّه على إفراز المواد التي ذُكِرَتْ سابقاً وهي الأندورفينات (Endorphins)، وبدرجة أكثر بكثير مما لو اعتمد الإنسان على الأطباء أو الأشخاص ذوي النفوذ، واعلم أنّ الدعاء لاينحصر في رفع الأيادي إلى السماء بل هو إنابة القلوب إلى الله، وبودّي أن أوجه إلى القارئ الكريم سؤالاً، وأقول فيه: إذا سلّمت نفسك إلى رجل مرموق المكانة في الدنيا، وأصبحت دخيلاً عنده فماذا يفعل لك هذا الرجل؟ وماذا باستطاعته أن يفعل؟ فإنّه بدون شك يعمل لك كلّ ما في وسعه من مساعدة أو ما شابه ذلك.. والآن عد معي إلى ذكر الله. فكيف إذا سلّمت نفسك لربّ العالمين خالقك وخالق السموات والأرض.. فإنّ تفويض الأمر إلى الله والإيمان بولايتهِ للمؤمنين له تأثير كيميائي خلقه الله في أجسامنا. فالإنسان الذي يؤمن بخالقه العظيم وبكونه مقتدراً، ويتوكل عليه عند إصابته بمرض أو مشكلة، فكلّ هذه الأمور تجعل قلب هذا الإنسان

opelikanal.com

المؤمن بخالقه يطمئن، فالقلب بدوره يؤثر وينقل هذه التأثيرات إلى القوتين الآخريين وهما الفكر والنفس وبذلك يصلحهما، ويعيش صاحبهما سعيداً نتيجة لإفراز تلك المواد التي سمّيناها الأندورفينات (Endorphins)، حيث تم التأكد من أنّ للأندورفينات تأثيراً لإزالة الآلام ومهدئة للجهاز العصبي، وتقلّل الإحساس بالتوتر، هذا وقد ذكر في كتاب Encyclopedia Britanica مجلد 4 الصفحة 491 سنة 1986: إنّ الأندورفينات تؤثر على مراكز الإحساس باللذة المتواجدة في المخ وتزيدها، أي تزيد اللذات، واللذة هنا يقصد بها جميع أنواع اللذة كلذة الشرب والأكل والجنس.. إلخ.

وما زالت تلك المواد تزيد الإحساس باللذة فإنّها بذلك تهدئ وتريح المرء، وفيما يلي النص الإنكليزي:

Endorphin, any of a group of opiate protenis with pain-releiving properites that are found naturally in the brain. The main substances identified as endorphins include the enkephalins, beta-endorphin and dynorphin, all discovered in the 1970's. Endorphins are distributed in charachteristic patterns throughout the nervous system, with beta-endorphin fund almost entirely in the pituitary gland.

Endorphins have been found to be clearly involved in the regulation of pain; even the analgesic effects of acupuncture treatments may be attributable to them. Such substances are also believed to have some relation to appetite control, the release of sex hormones through the pituitary, and the adverse effects of shock. There is strong evidance that endorphins are connected with "Pleasure centers" in the brain. Knoweledge about the behaviour of the endorphins and their receptors in the brain has implications for the treatment of opiate addictions and chronic pain disorders.

والنفس هي القوة الدافعة إلى التخيّلات السلبيّة أو البائسة عند المريض، وكأنّ هذه الصفة للنفس هي الأمّارة بالسوء التي تجعل المريض في دوّامة القلق، فإذا ما أصلحنا قلوبنا أصلحنا النفس والفكر فينا.. لكنّ السؤال الذي يتبادر إلى الإنسان هو كيف نحيي قلوبنا ونقوّيها ؟ فالجواب إذا فوّضنا أمرنا لخالقنا بالثقة التامة والإيمان بالله العزيز الرحيم، فسيكون للقلب منزلة عالية بين سائر قوى الشخص، فاذكر الله، وتوكّل عليه، فإنّه قادر على أن يقضي على شرّ النفس التي توسوس إليك؛ وبذلك سيزول عنك الألم والحزن، ويطمئن قلبك بذكره، فصدق الله عندما قال: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَتَطۡمَئِنُّ قُلُوبُهُم بِذِكۡرِ ٱللَّهِۗ أَلَا بِذِكۡرِ ٱللَّهِ تَطۡمَئِنُّ ٱلۡقُلُوبُ﴾ [الرّعد: 28] .

والقلب يوجّه الفكر لأن يعقل ويتصرف، ولا يستسلم للتخيّلات السلبية؛ وبذلك فالفكر يستنبط ويصل إلى ماهو الصواب إذا وجهته بإرادتك القوية توجيهاً صحيحاً، متوكلاً على الله.

والحمد لله الذي جعل رابطاً بين الدعاء والتوكل على الله والإيمان به (وهي كلها تجعل المؤمن يرضى عن خالقه)، وبين ما يحدث في الجسم من إفرازات لمواد كيميائية التي هو خالقها ويعلم بها. وأودّ أن أذكر لك بهذه المناسبة بعض الآيات لنطّلع على ما قاله الحق:

﴿...وَعَلَى ٱللَّهِ فَلۡيَتَوَكَّلِ ٱلۡمُتَوَكِّلُونَ﴾ [إبراهيم: 12] ، ﴿...وَمَن يَتَوَكَّلۡ عَلَى ٱللَّهِ فَهُوَ حَسۡبُهُۥٓۚ﴾ [الطّلاق: 3] ، ﴿...إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلۡمُتَوَكِّلِينَ﴾ [آل عِمرَان: 159] ، ﴿أَلَيۡسَ ٱللَّهُ بِكَافٍ عَبۡدَهُۥۖ﴾ [الزُّمَر: 36] ، وقال أيضاً: ﴿...وَمَن يَتَوَكَّلۡ عَلَى ٱللَّهِ فَإِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٞ﴾ [الأنفال: 49]، أي: عزيز لا يُذل من استجار به، ولا يضيّع من لاذ بإكرامه، والتجأ إلى رحمته؛ وحكيمٌ يدبر أمرمن توكل

عليه. وذكر في الأثر : «أوحى الله إلى داود عليه السلام، يا داودُ، ما من عبدٍ يعتصمُ بي دون خلقي فتكيدهُ السمٰواتُ والأرضُ إلا جعلت لـه مخرجاً»، ويقول الله : ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ﴾ [البَقَرَة: 186] . ألا تكفينا هذه الآيات لنتوكل كلياً على الله؟ وليكن في علمك بأنّ التوسل والدعاء إلى الله تعالى ليسا مجرد كلمات، بل إنّهما أمران عظيمان يحتاجان إلى خلو القلب من جميع ما في الدنيا ما أمكن ، وتتضرع إلى الله ، وتنسى مشاغلك، وتجعلها ذليلة أمام خالقك؛ وربما يقول البعض منّا: إنني أدعو ربي أن يرزقني مثلاً 1000 دينار.. .إلخ، فهذا الأمر يمكن أن تحصل عليه بسعيك وراء لقمة العيش، فالدنيا دار الأسباب، ولو كان الرزق بدون سعي وكدح لم يكن بالإمكان استمرار الحياة والحصول على حاجياتها من ملبس ومشرب، فإذا كان كلّ ما تطلبه من الدنانير يعطيك بدون عمل.. فلم يكن من الضروري أبداً العمل والسعي في الحصول على لقمة العيش. فعليك أن تسعى لأمورك الدنيوية، وتطلب من الله تعالى أن يبارك فيها.

والآن وبعد هذا العرض الواضح لتأثير الإيمان بالله العظيم في إراحة الناحية النفسية والقلبية، وإزالة الألم، والشعور بالراحة نتيجة لحث إفراز الأندورفينات، فماذا يقول الإنسان الذي لم يكن يعلم هذا النوع من التأثيرات الباطنية على المخ، وكانت تدعي بالماديات البحتة، أليس عليه أن يغير اعتقاده بعد أن علم ما للوعظ والذكر (والتي لايمكن لمسها باليد ولا ترى بالعين ، ولا تُحلل في المختبر، ولا يمكن فصلها بأعقد أجهزة متقدمة وأرقاها) ذلك التأثير الذي يؤثر به على واحد من أشرف الأجهزة وأعقدها في جسم الإنسان (وهو

الدماغ)، ويحثّه على إفراز مواد تم كشفها مؤخراً. فالدعاء ليس هراء ولا إلقاء كلمات في الهواء، واعتقاد الداعي بقبول دعائه من قبل مولاه سيؤثر في كيمياء دماغه ويريحه ويزيل عنه الألم.

هذا وقد لوحظ بأنّه عند حقن الأفيونات المخية (التي سميناها بالأندورفينات) في الإنسان أو الحيوان فإنّ تأثيراتها تشبه المورفين في مفعولها، علماً بأنّ تلك الأفيونات المخية هي أفيونات داخلية في جسم الإنسان، وقد لايسبّب حالة الإدمان التي يسببها المورفين إذا استخدمت الأفيونات المخية للتهدئة. ولكنّ المورفين يؤدي إلى الإدمان، وله تأثيرات سيئة جداً على الإنسان، أخي القارئ: اعبد ربك واشكره كثيراً، فماذا يحلّ بنا لو كان في جسمنا مورفين كالذي يستخرج من نبات الخشخاش؟ .. إنّ وجود المورفين في الخارج «في النبات» دليل على أنّنا وكل شيء من خلق إله خبير بكل العلم في الكون .

لقد تم فصل الأفيونات المخية من السائل المخي الشوكي، وتم التأكد من وجود الأندورفينات في الجهاز العصبي للفقاريات، وإنّها تؤثر فينا بطريقة المورفين نفسها.

وممّا سبق ذكره يظهر أنّ هناك في أجسامنا ما يشبه الأفيونات المخية تفرز عند الحاجة معتمدة على الناحية النفسية للشخص، فالذي يتوكل على ربه ويرضى بكلّ ما يصيبه من خير ويصبر على الشر فإنّه مرتاح البال، بحيث أنّ جسمه خلق بشكل يَعْلَمُهُ خالقه؛ فعلمه الخالق بشكل مبرمج ودقيق كيف يتصرف وكيف يتوكل ليعيش براحة نفسية تامة هادئاً مطمئناً. فالأفيونات المخية تفرز لكي تهدئنا، وجُعِلَ ذلك الإفراز مرتبطاً بقوة الإيمان؛ فإذا دعا

المؤمن ربه وعلم بأنّه بيده الشفاء على الرغم من استخدامه للأدوية التي أوصانا بها الله ورسوله المصطفى ﷺ فإنّه سيشفي أو تتغير حالته الصحية نحو الأحسن بكثير بالشكل الذي لايمكن تصوره في كثير من الأحيان.

عندما يقول الباري: ﴿...ٱدْعُونِيٓ أَسْتَجِبْ لَكُمْ﴾ [غافر: 60]، فهذا قول صادق لامحالة فإنّه من خالق عظيم، فإذا وقرَ ذلك في نفسك فالألم من أمراضك ومصائبك سيزول أو على الأقل سيُخفف (فهذا متوقف على قوة إيمانك). فهناك كثير من الآيات القرآنية والأحاديث النبوية تهيئ المؤمن وتحثّه وتوجهه للتوكل على الباري في السراء والضراء، ومن هذه الآيات: ﴿...وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُۥٓ﴾ [الطلاق: 3].

فالمقصود هنا بالتوكل توكلاً مطلقاً في كل أمور الحياة. فالذي يتوكل على ربه ويعتبر الشفاء بيده سيشفى فعلاً من ألمه ومرضه وقلقه، وكما قلت هذا لايعني أن نستغني عن الأدوية لأنّ الباري هدانا، ورسوله الكريم ﷺ أوصانا باستعمالها، لكنّه كما قلت إنّ نصف الشفاء في الإلهام الذي تحدثت عنه كثيراً: (وهو الإيحاء إلى النفس بأنّ الله سيشفيه) فقد خلق الله في أجسامنا مواد كيميائية تريحنا وتهدّئنا وتزيل عنّا الألم والحزن (بتلك المواد البيتيدية التي ذكرناها سابقاً): ﴿...وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ فَقَدَّرَهُۥ تَقْدِيرًا﴾ [الفرقان: 2].

فالمؤمن حين يذكر في نفسه الله فلذلك تأثير قوي على صحته وعافيته وحلّ مشاكله وسعادته، ولا يقلّ تأثيره عن الدواء الذي أمر به الباري ورسوله ﷺ. هذا وإنّ أحدث علم وهو الطب النفسي يبشر بمبادئ الدين، لماذا؟ لأنّ أطباء النفس يدركون أنّ الإيمان القوي، والتمسك بالدين، وعبادة الله، كفيلة بأن تقهر القلق والخوف والتوتر العصبي، وأن تشفي أكثر الأمراض حدة، نعم إنّ

أطباء النفس يدركون هذا الحق دون شك. وقد قال الدكتور (أ.أ.بريل) وهو عالم غربي: (إنّ المرء المتدين حقاً لايعاني قط مرضاً نفسياً).

ولا يخفى علينا بأنّ الإفرازات المخية السابقة الذكر توجد في جميع البشر (المسلم وغير المسلم)، إلا أنّ المسلم بإيمانه الراسخ بآيات ربه وأحاديث رسوله ﷺ في هذا المجال سيكون له نصيب كبير منها في شفائه، وإنّه لمن البديهي بأن إيحاء غير المسلم بعقيدة محرفة أيضاً له تأثير ما، إلا أنّه لايضاهي ذلك التأثير الذي يفعل في مؤمن راسخ الإيمان، لأنّ هذا التأثير في قلب المؤمن هو تأثير نفسي وواقعي أيضاً لأنّ الله يستجيب له في كل وقت، فهل من منكر لذلك؟ !﴿...وَمَا دُعَآءُ ٱلۡكَٰفِرِينَ إِلَّا فِي ضَلَٰلٖ﴾ [الرّعد: 14] .

وفي هذا المجال أودّ أن أنقل لك مقالة لترى ماذا يعمل التوكل والإيمان بالله في نفسية الإنسان وقلبه، فكاتب المقالة هو كاتب أمريكي يدعى بـ «ر.ڤ.س بودلي» R.V.C. Bodley وعنوان المقالة: عشت في جنة الله، ذَكَرَهُ ديل كارنيجي في كتابه (دع القلق وابدأ الحياة) الصفحة 351، ولقد أدهش هذا الكاتب الغربي ما رآه في الصحراء العربية وقصته هي:

عشت في جنة الله

بقلم ر.ڤ.س. بودلي

مؤلف كتاب (رياح على الصحراء)(5) و(الرسول ﷺ)

وأربعة عشر كتاباً آخر

(في عام 1918 ولّيت ظهري للعالم الذي عرفته طيلة حياتي، ويممت

(5) R.V.C, Bodley: "Wind in the sahra" - "The Messenger".

شطر أفريقيا الشمالية الغربية؛ حيث عشت بين الأعراب في الصحراء، وقضيت هناك سبعة أعوام، أتقنت خلالها لغة البدو، وكنت أرتدي زيّهم، وآكل من طعامهم، وأتخذ مظاهرهم في الحياة، وغدوت مثلهم أمتلك أغناماً، وأنام كما ينامون في الخيام، وقد تعمّقت في دراسة الإسلام، حتى أنّني ألّفت كتاباً عن محمد ﷺ عنوانه (الرسول ﷺ)، وقد كانت تلك الأعوام السبعة التي قضيتها مع هؤلاء البدو الرحل من أمتع سني حياتي وأحفلها بالسلام، والاطمئنان، والرضا بالحياة.

وقد تعلمت من عرب الصحراء كيف أتغلب على القلق، فهم بوصفهم مسلمين يؤمنون بالقضاء والقدر، وقد ساعدهم هذا الإيمان على العيش في أمان، وأخذ الحياة مأخذاً سهلاً هيناً. فهم لايتعجّلون أمراً، ولا يلقون بأنفسهم بين براثن الهمّ قلقاً على أمر، إنّهم يؤمنون بأنّ (ما قُدّر يكون)، وأنّ الفرد منهم لن يصيبه إلا ما كتب الله له. وليس معنى هذا أنهم يتواكلون أو يقفون في وجه الكارثة مكتوفي الأيدي، كلا.

ودعني أضرب لك مثلاً لما أعنيه: هبت ذات يوم عاصفة عاتية حملت رمال الصحراء وعبرت بها البحر الأبيض المتوسط، ورمت بها وادي (الرون) في فرنسا، وكانت العاصفة حارة جدًّا، وأحسست كأنّ شعر رأسي يتزعزع من منابته لفرط وطأة الحر، وأحسست من فرط القيظ كأنني مدفوع إلى الجنون، ولكنّ العرب لم يشكوا إطلاقاً؛ فقد هزّوا أكتافهم، وقالوا كلمتهم المأثورة: (قضاء مكتوب).

لكنهم ما إن مرت العاصفة، حتى اندفعوا إلى العمل بنشاط كبير، فذبحوا صغار الخراف قبل أن يودي القيظ بحياتها، ثم ساقوا الماشية إلى الجنوب

نحو الماء، فعلوا هذا كله في صمت وهدوء دون أن تبدو من أحدهم شكوى، قال رئيس القبيلة الشيخ: (لم نفقد الشيء الكثير، فقد كنّا خليقين بأن نفقد كلّ شيء، ولكن حمداً لله وشكراً، فإنّ لدينا نحو أربعين في المائة من ماشيتنا، وفي استطاعتنا أن نبدأ بها عملنا من جديد).

وثمة حادثة أخرى.. فقد كنّا نقطع الصحراء بالسيارة يوماً فانفجر أحد الإطارات، وكان السائق قد نسي استحضار إطار احتياطي، وتولاني الغضب، وانتابني القلق والهم، وسألت صحبي من الأعراب: «ماذا عسى أن نفعل؟» فذكّروني بأن الاندفاع إلى الغضب لن يجدي فتيلاً، بل هو خليق أن يدفع الإنسان إلى الطيش والحمق، ومن ثم درجت بنا السيارة وهي تجري على ثلاث إطارات ليس إلا، لكنّها ما لبثت أن كفّت عن السير، وعلمت أنّ البنزين قد نفد، وهنالك أيضاً لم تثر ثائرة أحد من رفاقي الأعراب، ولا فارقهم هدوءهم، بل مضوا يذرعون الطريق سيراً على الأقدام وهم يترنّمون بالغناء!.

قد أقنعتني الأعوام السبعة التي قضيتها في الصحراء بين الأعراب الرحّل، أنّ الملتاثين، ومرضى النفوس، والمكّيرين، الذين تحفل بهم أمريكا وأوروبا، ما هم إلا ضحايا المدنية التي تتخذ السرعة أساساً لها.

إنّني لم أعانِ شيئاً من القلق قط، وأنا أعيش في الصحراء، بل هنالك في جنة الله، وجدت السكينة، والقناعة، والرضا، وكثيرون من الناس يهزؤون بالجبرية التي يؤمن بها الأعراب، ويسخرون من امتثالهم للقضاء والقدر.

ولكن من يدري؟ فلعلّ الأعراب أصابوا كبد الحقيقة، فإنّي إذ أعود بذاكرتي إلى الوراء.. وأستعرض حياتي، أرى جلياً أنّها كانت تتشكل في

فترات متباعدة تبعاً لحوادث تطرأ عليها، ولم تكن قط في الحسبان، أو مما أستطيع له دفعاً، والعرب يطلقون على هذا اللون من الحوادث اسم (قدر) أو (قسمة) أو (قضاء الله)، وسمّه أنت ماشئت.

وخلاصة القول إنّني بعد انقضاء سبعة عشر عاماً على مغادرتي الصحراء، ما زلت أتخذ موقف العرب حيال قضاء الله، فأقابل الحوادث التي لا حيلة لي فيها بالهدوء والامتثال، والمكينة، ولقد أفلحت هذه الطباع التي اكتسبتها من العرب في تهدئة أعصابي أكثر مما تفلح آلاف المسكّنات والعقاقير!).

وأنا بعد هذه القصة التي كُتِبَتْ بيد أمريكية، أكتب لك قصة حقة عشتها في الخمسينات مع والدي فإنّها قصة تبهر العقل وتقشعر لها القلوب.. وهذه القصة تدور حول عالم ديني كبير لم يشهد التأريخ الإسلامي المعاصر إلا قليلاً من أمثاله؛ وهو سماحة العلامة الشيخ مصطفى أبوبكر النقشبندي، وكان من العلماء المبرزين في مدينة أربيل بكوردستان العراق، ولا أبالغ لو قلت حتى في عموم العراق أيضاً.

أمّا قصته فتنحصر في الآتي:

كان على هذا العالم أن تُجرى له عملية جراحية في البطن (الفتق)، وقد استدعى جرّاحين لإجراء تلك العملية آنذاك، أحدهما طبيب أرمني الأصل، والآخر هو الدكتور عثمان حاجي أحمد آغا، وهو شخصية معروفة في مدينة أربيل. فكالعادة أراد الطبيبان تخدير العالم الشيخ مصطفى، حيث رفض العالم عملية التخدير وقال لهم: ماذا تريدون منّي؟ ألا تريدون أن لا أتحرك أثناء إجراء العملية؟ فأجابه الطبيب الأرمني: كيف؟ فردّ حضرة الشيخ قائلاً له بكلّ لطف واحترام: يا دكتور أليس المطلوب منّي أن لا أتحرك؟ فأجابه الطبيب:

نعم. فقال له حضرة الشيخ: ابدأ بالعملية فإذا لم أكن كما تريدون، فحينئذ خدّروني، واقتنع الطبيبان بكلام هذا العالم الفاضل، فبدأ الطبيبان بإجراء العملية، وشُقَّتِ البطنُ، فلم يتحرك الشيخ أبداً.. حتى وصل الأمر إلى أنّ الشيخ كان يُنكِّتُ لهم أثناء إجراء العملية ويبتسم، حيث تعجب هذان الطبيبان بهذا الأمر، فقال له الطبيب الأرمني: يا حضرة الشيخ لا تنكّت فإنّها تعيق العملية، وانتهت العملية بنجاح ودون أي تخدير لهذا العالم المؤمن بالله ورسوله، فمع استغراب هذين الطبيبين لهذا الأمر، ومع الإعجاب الكبير واللامتناهي بادر الطبيب الأرمني بتقبيل يد هذا العالم وقال: أرجو منك الدعاء فقط.

وبعد انتهاء العملية زار والدي هذا العالم الجليل، وتحدث معه قائلاً: كيف إمتنعت عن عملية التخدير أثناء إجراء هذه العملية الجراحية المؤلمة؟ وكيف تحمّلت تلك الآلام؟ انظر أخي القارئ إلى هذا الجواب الذي كان قد بيّنه عالم مؤمن بالله إيماناً حقاً، وكان من المتوكلين على الله حق توكّله قائلاً: لو قبلت التخدير لنزلت عن درجتي الإيمانية والعلمية، فإنّي عزمت أن لا تنقطع صلتي مع ذكر الله حتى لسويعات أو أقلّ منها، أمّا عن تحمّل الآلام، فأجاب فضيلته قائلاً: إنّ هذا الجسد هو خالقه فإذا توكلتُ عليه فكيف أشعر بالألم؟

ألا تكفيك هذه القصة الواقعية التي عشتها وعاصرتها شخصياً؟ فهذا العالم هو المثل الأمثل الذي ينطبق عليه كلّ ما يدور حول الموضوع من التأثيرات التي ذكرتها سابقاً، فأين العلم في مثل هذه الظاهرة العجيبة؟ أين مادة التخدير هنا؟ وأين الإبر الصينية؟ وأين الأعصاب الحساسة هنا لمكين الطبيب؟ وأين تلك الأعصاب عند خياطة الجرح بالإبرة؟ أنا لا أريد أن أذكر هنا شيئاً عمّا يقوم

به المحرة والآخرون، أو رجال التنويم المغناطيمي، فأنا ذكرت هذه القصة ولم تكن الوسيلة عند هذا العالم الرباني (بكل معنى الكلمة) إلاّ التوكل على الله وحده، وهذا هو موضوع البحث. فأنا بهذه القصة أتحدى جميع العلماء والأساتذة والأطباء والعباقرة ذوي الاختصاصات الأخرى أن يجروا مثل هذه العملية.. وإن أجريت عملية جراحية لأيّ واحد منهم لا يؤمن هذا الإيمان ولا يتوكل على ربّه ذلك التوكل، فلا محال أنْ نسمع صياحه وعياطه عن بُعدِ كيلومتر..

فهل نحن متوكلون على ربّنا؟.. وماذا يحدث لنا إذا ما أصابتنا مصيبة بسيطة؟.. غير تلك العملية الجراحية الكبرى.. ماذا نقول؟ وماذا نعمل؟.. فقد جمعت لك أمثلة كثيرة من أناس غربيّين وشرقيّين، ألا يكفيك هذا؟.. فلا أظنّ أنّ هناك حاجة لذكر المزيد.. فتوكل العالم الفاضل على خالقه جعل مخه يستجيب لإفراز الناقلات العصبية (الأندورفينات) لتزيل عنه أشد الألم في جسد الإنسان.

هذا وقد وجدت في كتابي هذا فرصة أن أربط بين الإيمان وتأثيراته العلمية التي قد لم يتطرق إليهما أحد من قبل، ـ فيما وقفت عليه ـ إنّني في الحق عند تواجدي في ألمانيا الغربية في السبعينات وإلى سنة 1980، كنت أتعجب من أطباء الغرب إذ كان أكثرهم ـ إن لم يكن جميعهم ـ يصارحون المريض المصاب بمرض عضال كالسرطان أو القلب.. وأحياناً كانوا يصارحون المرضى بالقول إنّك لا تعيش أكثر من كذا عام، وكنت أرى المريض ينهار في الحال وتسوء حالته، فكان من الواجب على الأطباء دمج الكلمات المعسولة بالشفاء وبث الأمل في نفس المريض، إذ يخفى على هؤلاء الأطباء دور تقوية

الإرادة والإيحاء، وربما تقول وتسأل: هل يجوز من الناحية الخُلُقِيَّة أن يسلّي المريض؟ فإنّ الغاية هي إفادة المريض، وهنا ستكون النية هي الأهم، فعندما تقول للمريض: ستطيب إن شاء الله، فإنك ستعطي للمريض أملاً يؤثر في كيانه وتفاعلات جسمه، كما ذكر آنفاً، وإنّي سأوافيك بأحسن المراجع للإجابة على سؤالي آنف الذكر: حول ملاطفة المريض، وهو حديث رسولنا الكريم ﷺ في علاج المرضى بتطييب نفوسهم وتقوية قلوبهم، ذُكِرَ ذلك في الطب النبوي لابن قيم الجوزية:

روى ابن ماجه (في سننه) من حديث أبي سعيد الخدري (رضي الله عنه)، قال: قال رسول الله ﷺ: **«إذا دخلتم على المريضِ، فنفّسوا له في الأجل، فإنّ ذلك لا يرد شيئاً، وهو يطيّب نفس المريض»**[6].

وفي هذا الحديث نوع شريفٌ جداً من أنواع العلاج، وهو الإرشاد إلى ما يطيّب نفس العليل من الكلام الذي تقوى به الطبيعة، وتنتعش به القوة، وينبعث به الحارُّ الغريزي، فيتساعد على دفع العلة أو تخفيفها الذي هو غاية تأثير الطبيب.

وتفريح نفس المريض، وتطييب قلبه، وإدخال ما يسرّه عليه، له تأثير عجيب في شفاء علّته وخفتها، فإنّ الأرواح والقوى تقوى بذلك، فتساعد الطبيعة على دفع المؤذي، وقد شاهد الناس كثيراً من المرضى: تنتعش قواهم بعيادة من يحبونهم، ويعظمونهم، ورؤيتهم لهم، ولطفهم بهم، ومكالمتهم إياهم، وهذا

(6) أخرجه الترمذي في الطب، وابن ماجه في الجنائز، ومعنى (فنفّسوا له في الأجل) أي: وسّعوا له وأطمعوه في طول الحياة، وأذهبوا حزنه فيما يتعلق بأجله، بأن تقولوا: لا بأس، طهور، فإنّ في ذلك تنفيساً لما هو فيه من الكرب وطمأنينة لقلبه.

أحد فوائد عيادة المرضى التي تتعلق بهم، فإنّ فيها أربعة أنواع من الفوائد: نوع يرجع إلى المريض، ونوع يعود على العائد، ونوع يعود على أهل المريض، ونوع يعود على العامة.

وقد تقدم في هديه ﷺ أنّه كان يسأل المريض عن شكواه، وكيف يجده؟، ويسأله عمّا يشتهيه، ويضع يده على جبهته، وربما وضعها بين ثدييه، ويدعو له، ويصف له ما ينفعه في علّته، وربما توضأ وصبّ على المريض من وضوئه، وربما كان يقول للمريض: «**لا بأسَ طهورٌ إن شاء الله**»[7]، وهذا من كمال اللطف، وحسن العلاج والتدبير.

هذا هو حديث الرسول ﷺ الذي تحدث به قبل أكثر من (1400) سنة يؤكد ويتحدث عن أشياء أو أمور يثبتها العلم في يومنا هذا.

انظر: فإنّ ما قاله الرسول ﷺ تلطيفٌ للمريض يؤثر في كيمياء المخ، هذا ولا ننسى أنّ الرقية نوع من الدعاء إلى المريض. فكيف علينا أن ننسى الآيات التي ذكرها لنا ربنا: ﴿...وَيَشْفِ صُدُورَ قَوْمٍ مُّؤْمِنِينَ﴾ [التوبة: 14].

وقال أيضاً: ﴿...وَشِفَآءٌ لِّمَا فِي ٱلصُّدُورِ﴾ [يونس: 57]، فشفاء لما في الصدور يشمل الأمراض الجسدية والنفسية والصدرية (أي كل ما نسميه الأمراض النفسية).

عد معي عزيزي إلى علاج المصائب وحزنها فيكفي أن يحدّث المصاب نفسه بأنّ كلّ ذلك من عند الله، فما عليه إلا أن يفتح في قلبه فسحة لقوله تعالى: ﴿وَبَشِّرِ ٱلصَّٰبِرِينَ ۝ ٱلَّذِينَ إِذَآ أَصَٰبَتْهُم مُّصِيبَةٌ قَالُوٓاْ إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّآ إِلَيْهِ رَٰجِعُونَ ۝ أُوْلَٰٓئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَٰتٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُهْتَدُونَ﴾ [البقرة: 155-157]. وفي (المسند) عنه ﷺ أنّه قال: «**ما من أحدٍ تصيبهُ**

(7) أخرجه البخاري.

مصيبةٌ فيقول: إنّا لله وإنّا إليهِ راجِعُونَ، اللهم أجُرْني في مصيبتي، وَأخْلِفْ لي خيراً منها، إلاّ أجارَهُ الله في مصيبتهِ، وأخلَفَ له خيراً منها»[8]. حيث يقول صاحب كتاب الطب النبوي صفحة (140-141):

(وهذه الكلمة من أبلغ علاج المصاب، وأنفعه له في عاجلته وآجلته، فإنّها تتضمن أصلين عظيمين إذا تحقق العبد بمعرفتها تسلّى عن مصيبته.

أحدهما: أنّ العبد وأهله وماله ملك لله عز وجل حقيقة، وقد جعله عند العبد عارية، فإذا أخذه منه، فهو كالمعير يأخذ متاعه من المستعير، وأيضاً فإنه محفوف بِعَدَمَيْنِ: عدم قبله، وعدم بعده، وملك العبد له متعة معارة في زمن يسير، وأيضاً فإنه ليس الذي أوجده عن عدمه، حتى يكون ملكه حقيقة، ولا هو الذي يحفظه من الآفات بعد وجوده، ولا يُبقي عليه وجوده، فليس له فيه تأثير، ولا ملك حقيقي، وأيضاً فإنه متصرف فيه بالأمر تصرف العبد المأمور المنهي، لا تصرف الملاك، ولهذا لايباح له من التصرفات فيه إلا ما وافق أمر مالكه الحقيقي.

والثاني: أنّ مصير العبد ومرجعه إلى الله مولاه الحق، ولا بد أن يُخَلِّفَ الدنيا وراء ظهره، ويجيء «يأتي» ربّه فرداً، كما خلقه أوّل مرة، بلا أهل ولا مال ولا عشيرة، ولكن بالحسنات والسيئات، فإذا كانت هذه بداية العبد وما حوله ونهايته، فكيف يفرح بموجود، أو يأسى على مفقود، ففكره في مبدئه ومعاده من أعظم علاج هذا الداء، ومن علاجه أن يعلم علم اليقين أنّ ما أصابه لم يكن ليخطئه، وما أخطأه لم يكن ليصيبه. قال تعالى: ﴿مَآ أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فِىٓ أَنفُسِكُمْ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ مِّن قَبْلِ أَن نَّبْرَأَهَآ ۚ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى

(8) أخرجه الإمام أحمد ومسلم في الجنائز.

﴿اللَّهِ يَسِيرٌ ۞ لِكَيْلَا تَأْسَوْا عَلَىٰ مَا فَاتَكُمْ وَلَا تَفْرَحُوا بِمَا آتَاكُمْ ۗ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ﴾ [الحديد: 22-23].

ومن علاجه أن ينظر إلى ما أصيب به، فيجد ربّه قد أبقى عليه مثله، أو أفضل منه، وادّخر له ـ إن صبر ورضي ـ ما هو أعظم من فوات تلك المصيبة بأضعاف مضاعفة، وأنّه لو شاء لجعلها أعظم ممّا هي.

وفي الصحيحين: أنّ النبي ﷺ، كان يُعَوِّذُ بعض أهله، يمسح بيده اليمنى، ويقول: «**اللهم ربَّ الناسِ، أَذْهَبِ البأس، واشفِ أنتَ الشافي، لا شفاءَ إلا شفاؤكَ، شفاءً لا يغادر سقماً**». ففي هذه الرقية توسل إلى الله بكمال ربوبيته، وكمال رحمته بالشفاء، وأنّه وحده الشافي، وأنّه لا شفاء إلا شفاؤه، فتضمنت التوسل إليه بتوحيده وإحسانه وربوبيته.

فإذا كنت مؤمناً بآياته إيماناً مطلقاً فإنّ تلك الآيات تريحك إراحة تامة بشكل لا يوصف ببيان ولا ينطق بلسان، وإنّ ذلك سيؤثر دون شك على كيمياء جسمك، فآمن يا أخي بتلك الآيات والأحاديث النبوية، فإنّ الله خلقنا، ويعلم كيف يطبّبنا.. وكيف يشفينا، فتطمئن نفوسنا التي تؤثر في مواد أجسامنا.. فبذلك تهدأ وتسكن؛ فالهدوء والطمأنينة لا يمكن أن يحصل عليهما كثير من الناس ومنهم الأغنياء ولو بملايين الدولارات، ولكن يحصل عليهما المؤمن بدون مقابل.

فالتلاحم بين الثنائيات الروح والجزيئات والذرات ارتباطٌ لا يمكن تجزئتهما أبداً.

فالروح لم يدرك في مكان .. وكتقريب له الفكرة في من يفكر، والخاطر في نفس من يُلهم، والثقة في نفس المؤمن، لا سبيل للحسّ إلى إدراك شيء من

obeikandl.com

تلكم الأمور، مع أنّها لها أثر في حياة صاحبها: فهي التي تصنع له تاريخه، وتوجهه لرسم خطوط منهاجه، وقد يكون لها الفضل في تحويل حياته من حالٍ إلى حال. ﴿وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلرُّوحِ قُلِ ٱلرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّى وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا﴾ [الإسراء: 85]. وجسم الإنسان كآلة محكمة مصممة بدقة متناهية، فيها هندسة وإحكام، فيها جمال وكمال.. ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ فِىٓ أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ﴾ [التين: 4] . وهذا هو سر تميّز حياة البشر، شيء لا سبيل إلى لمسه ورؤيته، ولكنّه موجود، وهو ما يتميز به الإنسان على الحيوان وسائر المخلوقات. هذا الشيء الخفي هو الروح التي يرى البعض أنّها خالدة مخلّدة .. وهي التي تنفصل بالموت كمرادف أو مقارب للنفس التي ذكرت في القرآن حين تتوفى. .وقد وهبنا الله هذا الفضل، ونفخ في آدم من روحه، فكان للإنسان إلى جانب بشريته؛ روحٌ تعود عليه بكلّ خصائص الحياة البشرية..

وثمة سؤال أوجهه للقارئ: هل يستسلم المرء لمرض عضال صعب الشفاء وفيه هذه الروح ؟ فللطبيب وظيفة يؤديها في مداواة مرضك، ولك وظيفة تؤديها في مقاومة يأسك وقنوطك، وبذلك تناهض ميول النفس التي تتراكم في مثل هذا الوضع ... فاملأ نفسك بالخير، فمتى امتلأت استحال النفور أن يثبت وجوده، وكذلك استحال الخوف أن يرسّخ أقدامه. ففي الدين قوة حافزة، ويحقق لك أفضل شيء في الدنيا والآخرة؛ فالإيمان بالله القادر على كل شيء يجعل فكرنا حقاً ونتسامح في بيعنا وشرائنا واقتضائنا، فيحب بعض المؤمنين بعضاً ، ويتعارفون مع غيرهم ..

فالإنسان لايرجع في استعداده إلى خصائص الطين والحمإ المسنون فحسب، بل يرجع كذلك إلى خصائص الروح الذي نفخه الله فيه.

obeikandi.com

هذا وربما يكشف لنا العلم في المستقبل القريب أو البعيد حقاً علمياً عن تركيبة الأفيونات الداخلية يفوق ما ذكرته؛ وتلك من آيات الأنفس . .

والآن آن الأوان لبيان نبذة تأريخية عن الأندورفينات (Endorphins) استفدت منها في كتاب صدر حديثاً بعنوان عبقرية الحياة الصفحة (304 ـ 305) للمؤلفين دافيد فيشلوك و أليزابيث انتيبي ـ ترجمة ميشيل خوري ـ سنة 1995 وكالآتي:

(في السبعينات أغنت فصيلة الهورمونات العصبية بأعضاء جدد ذات طبيعة غريبة هي مورفينات المخ. فُكِّرَ منذ مدة طويلة أن مادامت الأفيونات كالمورفين والهيروئين تؤثر على المخ، فإنّ ذلك يعني وجود مستقبلات متعلقة بها في الخلايا المخية، وفي العام 1971 اقترح غولدستين في ستانفورد طريقة لإيجاد هذه المستقبلات التي تحددت بعد ذلك بقليل في جامعة هوبكنز من قبل سولومون سنيدر وكانداس برت، وفي كلية الطب في جامعة نيويورك في نفس الوقت تقريباً من قبل إريك سيمون، وفي جامعة أوبسالا من قبل لارس ترينوس.

ولكن لماذا يحوي المخ مستقبلات المورفين والهيروئين؟ ألا يعني هذا أنّ المخ ينتج بالذات مواد كيميائية من نفس الطبيعة، وخاصة من بنية مماثلة؟ والحال أنّ جون هوغز وهانس كوسترليتز من جامعة أبردين في أسكوتلندة قد أعلنا في 2 أيار 1975 عن اكتشاف هذه المواد التي سمياها أنكفالين: (أي ما في الرأس). وفي العام 1976 كشف روجر غيومين عن مواد أخرى (ابنة عم) الأنكفالين سماها أندورفين: (المورفينات المتولدة داخلياً)، وفي العام 1979، في اليابان، اكتشف كنجي كانغاوا وهيزيوكي ماتسوو من كلية طب ميزاياكي

ومازاوو إيغاراشي من معهد الطب في جامعة غونما ما سمّوه (ألفا ـ نيوأندورفين) وهي شبيهة بالدينورفين (التي أطلق عليها هذا الاسم لقدرتها الكبيرة)، وقد أعطاها هذا الاسم في كانون الأول من نفس السنة أفرام غولدستين الذي لاحظ أنّها ببتيد كان قد حدده منذ نحو أربع سنوات.

تكثفت الأبحاث عقب ذلك حول طلائع هذه المواد، واهتم فرق عديدة بهذا الموضوع: منهم سيد أودنفريد في معهد روش وشيغاتاوا ناكانيشي من جامعة كيوتو، وروبرت كريا من جنتش وإد هربرت وميكائيل كومب من جامعة أورغون إلخ... إذ أنّ هذه النواقل العصبية، من نوع خاص (نواقل عصبية مثبطة)، التي تعمل أيضاً كهرمونات ترسل رسائلها إلى مسافات طويلة وأخرى قصيرة جداً تؤثر على الألم كما برهنت على ذلك تجارب متنوعة (منها تجارب غيومين)، وعلى آليات الإدمان (على المخدرات مثلاً) وتقدم إمكان تحرير مواد، بالطريق الكيميائي أو الحيوي، أكثر قدرة من المورفين أو الهيروبين، دون آثار ثانوية مؤذية؛ على ما يُؤمّل، عدا عن ذلك، فهذه المواد الأكثر قدرة بعشرات المرات من الهيروبين، قد وجدت في الأمعاء والمعدة والنخاع الشوكي ومناطق أخرى من الجسم وعند أجناس أخرى من الثدييات وغيرها من الفقاريات).

وبعد هذه النبذة التأريخية الموجزة عن تلك المواد سأوافيك عزيزي القارئ: بالماهية الكيميائية لهذه المركبات ترجمتها من كتاب Modern concept in biochemistry الصفحة (79) ألّفه Robert C. Bohinski سنة 1983:

«تختلق الأندورفينات في الفص الأوسط للغدة النخامية، ولقد اكتشف

اثنان منهما وهما يحتويان على خمسة أحماض أمينية، وتختلفان في الحامض الأميني فيكون في إحداهما الحامض الأميني الخامس هو ميتيونين (Methionine) ويسمى بذلك ميت إنكفالين Met) enkaphalin)، والآخر يكون الحامض الأميني الخامس فيه هو عبارة عن الحامض الأميني ليوسين (Leucine) لذا فيدعى بـ(ليوإنكيفالين (Leu) enkaphalin)، وبالرغم من هذا الاختلاف البسيط بينهما فإنّ تأثير الـ «ميت أنكافالين» كمزيل للآلام يكون أقوى بعشرين مرة من الـ «ليوانكيفاليين»، هذا علماً بأن خاصية تسكين الألم (Analgesic) هو فعل من أفعال هذه المركبات البيبتيدية الأفيونية في الكائن الحي. كما أنّه تم اكتشاف بيبتيدات أفيونية أخرى من المخ مثل دينورفين Dynorphin الحاوي على (13 حامضاً أمينياً)، وكذلك بيتاأندورفين ـ β) endorphin) الحاوي على (31 حامضاً أمينياً). علماً بأنّ الأفيونات البيبتيدية تنشأ من مركب كبير لايمتلك أي نشاط أفيوني فينشأ مثلاً المركب بيتا إندورفين من مركب البيتاليبوتروبين (الحاوي على 91 حامضاً أمينياً) الذي لا يمتلك أي نشاط أفيوني.

أخي القارئ: أسلم وجهك إلى الله، ولا تجادل بغير علم ، فإنّنا لا زلنا في بداية الطريق، والله أعلم ما سيكتشفه العلم بعد قرن أو قرنين، فلا يُستبعد أبداً أن يكون العلم سبباً لدخول أناس كثيرين في هذا الدين والاستسلام له، من العلماء وغيرهم، كما هو الآن.

وأخيراً أود أن أُعلم القارئ الكريم بأنّ الحشيش المهدئ الممنوع استعماله في كلّ دول العالم يختلف عن المواد المهدئة أي الأفيونات المخية المتكونة داخل جسم الإنسان، فشتّان بينهما؛ فالحشيش يضعف المناعة ضد الأمراض

لتخريبه المستمر لكريات الدم البيضاء، كما أنّه يحدث الأنيميا الحادة، ويضعف الهورمونات الذكرية وأخصها التيستوستيرون مما يسبّب العقم في كثير من الرجال، هذا مع فتكه بالرئة وإحداثه تغييرات سرطانية فيها. وأود أيضاً أن أنبّه القارئ على نقطة مهمة وهي: إنك الآن تعرّفت على ما أودع الله في جسمك من مركبات كالأندورفينات وغيرها وتأثيراتها، ولكن اعلم جيداً بأنّ هذه المركبات لا تعمل إلا بإرادة الله، ولا يجوز مطلقاً أن ننسب فعل المواد إلى نفسها فقط، حتى أنّه لا يستقيم أن نقول بأنّ الله قد جعل في المادة الفلانية الخاصية الفلانية، ثم تركها تعمل لوحدها، واعلم جيداً بأنّها لا تعمل إلا أن يشاء الله في أي زمانٍ حصل ومكانٍ حلّ.

openkandl.com